التعليم والحالة الاجتماعية في مصر

للأستاذ اسماعيل مظهر

لقد بلغنا من البحث ذلك المبلغ الذي يهيئ لنا أن نخلص إلى النتائج، فقد شرحنا الأسباب التي أفضت بنا إلى تخريج متعلمين عاطلين لا عمل لهم، ولا بيئة يمكن أن ينتفع فيها بما تعلموا، وصورنا مجمل النتائج الاجتماعيـة التي تترتب على هذه الحال، وطبقنا النظريات الاجتماعية فاستنبطنا منها صورة لما سوف يكون عليه مجتمعنا في المستقبل القريب والنتائج السيئة التي ستظهر آثارها جلية واضحة في عجزنا عن الاحتفاظ بحالة اجتماعية ثابتة قوية الأركان، وعطفنا من ثم على وصف صورة من أدبنا ووطنيتنا، وعزونا كل النقائص إلى نظرية جديدة محصلها أن الانفصال عن ثقافتنا التقليدية كان سبباً في أن نصبح كـكائن حي لا معدة له، يأكل ولا يهضم، فتراكمت في كيانه كل النفايات التي لا تلائم طبعه ولا تتفق ومزاجه، وأن ذلك كان سبباً في ألا تظهر له شخصية خاصة به، وأصبح كَلاًّ على غيره بأن فقد استقلاله الذاتي في الحياة

ويجدر بنا بعد ذلك أن نُعين مم تتكون الثقافة التقليدية، ليتيسر لنا أن نحدد البحث تحديداً منطقيا مقبولا، فان لـكل ثقافة تقليدية اختصت بها أمة من الأمم مكونات تنتهي إلى أصول بعينها؛ وعندي أن للثقافة التقليدية عنصرين: الأول عنصر عقلي، والثاني عنصر معاشي، وكلاهما موروث؛ فالأول يتكون وراثة من اللغة والدين والتاريخ والأدب والفنون الخ، والثاني يتكون وراثة من كل ما يتعلق بالأحوال الماشية، وهي في مصر الزراعة وما يتعلق بها من المنتجات، ومن أجل أن يكمل استقلال الفرد استقلالا عملياً في الحياة، ينبغي أن يتجه تنشيئه إلى أصل أساسي، وبالأحرى إلى سياسة عملية ترمي إلى وصله بالعنصرين وصلا وثيقاً، حتى يستطيع أن يمثل جميع ما يلقح به من مقتضيات الثقافة الحديثة، فيكيفها على حسب ما تتطلبه حاجات ثقافته التقليدية، وأن ينفي عن جسمه كل ما هو غير ملائم له، فيظل سليما؛ شأن كائن حي اتصف بكل ما تعده به حيوية مكتملة من الصفات الضرورية للحياة، وتتكامل في كيانه كل الأجهزة المنظمة التي ترجع الى قدرة أعضائه على تنظيم وظائفها تنظيما دقيقاً يساعد الطبيعة على أن تفسح له في الحياة مركزاً جديراً بما يتصف به من صفات، وبما له من مقدرة على الاستقلال بذاته

تتصل مصر بثقافتين من أمجد الثقافات التي خلفها النوع الانساني: ثقافة العرب: ديناً ولغة؛ وثقافة المصريين: فناً وحياة؛ ولا شك في أن الثقافتين تمتزجان الآن في المصريين امتزاجاً عظيما، حتى ليتعين علينا أن نقول إن ما ندعى بالثقافة التقليدية ينحصر فيما ينتج من مزج الثقافتين القديمتين من خلال تشعر بأن ماضينا مكون منها، وأن دمنا ملقح بها، وفي تصوراتنا وأخيلتنا ومشاعرنا وجماع ما فينا من صفات إنما تنعكس عنها وتنبعث منها. وكذلك إذا قلنا «المصرية» فإننا لا نعني بها شيئاً إلا مزيج تينك الثقافتين المجيدتين اللتين كونتا لنا على مر العصور تراثاً قوياً نستند اليه، ودعامة متنى لمجد ينتظرنا إذا نحن استوحيناهما واسترشدنا بوحيهما، واتخذناهما أساساً نقيم عليه لمستقبلنا، ولم نعزف عنهما شأننا الآن

وإذن يكون لنا من ثقافتنا التقليدية ناحيتان: الأولى ثقافة تزودنا بها اللغة العربية والدين الاسلامي؛ وهذه الناحية تكون أكثر ما فينا من نزعات الأدب والعلم؛ والثانية ثقافة تزودنا بها مصر القديمة؛ وهذه بدورها تكون متجهنا الفني والمعاشي ومنهما معا يتكون ذلك التراث الخـالد الذي ندعوه ثقافة المصريين التقليدية

ولن يكون هذا البحث كاملا إلا إذا عرفنا قيمة اتصالنا بهذه الثقافة ومقدار ما نحتاج اليها في تكوين نهضتنا الحديثة تكوينا نضمن معه الثمرة العملية التي ترجى من جيل جديد قادر على الكفاح في الحياة، والعمل المنتج الذي يعيننا على اقرار الحالات الاجتماعية على أساس ثابت، وآمل أن أكون قد أفلحت بعض الشيء في تصوير ذلك في سياق هذا البحث

* * *

لا ريبة في أن التعليم العام هو الأداة التي تمهد لنا سبيل

لاتصال بثقافتنا التقليدية ، ولقد وضح لنا حتى الآن أن السياسة التي جرى عليها التعليم في بلادنا قد اضعفت من وسائل هذه الأداة اضعافا ظهر أثره جليا في كل مرافقنا ، بل وفي كل نواحي حياتنا عقلية ومادية

عمد الأوربيون منذ عصر النهضة الأدبية الحديثة إلى الاتصال بثقافتين أوربيتين كانتا المهاد الأول والسنادة العظمى في تلك النهضة . عمدوا إلى ثقافة اليونان وثقافة الرومان ، حتى لقد غالوا في ذلك باتخاذ اللغة اللاتينية لغة رسمية في العلم وفي الأدب وفي الفن ، فأحيوا بذلك ثقافتين لم يكن لهم مناص من احيائهما لتكونا الوصلة بينهم وبين ماض صبغ ثقافته حوض البحر المتوسط قروناً بصبغة خاصة ولون خاص ؛ ولا تزال جامعات أوربا حتى اليوم تعنى العناية كلها بتلقيح عقول الناشئين بتراث الثقافتين معاً ، بل وتجعل درس اللغتين اليونانية واللاتينية أصلا من أصول التثقيف العالي ، فلم كان ذلك ؟ ولأي من الأسباب الحيوية التي شعر بها الأوربيون في بدء نهضتهم ترجع هذه الظاهرة ؟ إنها ترجع كما قلنا إلى أن الثقافة التقليدية هي الأصل الذي يجب أن يظل ثابتا في بناء الأمم الأدبي والاجتماعي ، ليكون ملقحا للآراء والنظريات وضروب الثقافات الدخيلة ، احتفاظا بالطابع الأصيل في الأمة ، ذلك الطابع الذي هو جزء من كيانها وقطعة من وجودها ، وليكون في الوقت ذاته المدة في تمثيل ما يتصل بثقافة الأمة من الثقافات المنتحلة غير الأصيلة ، وتكييفها تكييفا يتفق ونزعاتها ومشاعرها وأخيلتها ، وعلى الجملة يتفق وثقافتها التقليدية . فهل انبعثنا في نهضتنا هذا السبيل القويم ؟ وهل كفل لنا التعليم الوصول إلى هذه الغايات العليا ؟

كلاّ . لم يكفل لنا التعليم شيئاً من هذا . وأقصد به التعليم بناحيتيه : الناحية التي تمثل وراثتنا عن العرب لغة ودينا ، وأعني بها الأزهر ، فانه لم يلقح بشيء من الثقافات الحديثة التي يجب أن يلقح بها لتكون له بمثابة الدم الجديد يجري في العروق القديمة . وكذلك لم تعن الناحية التي تمثل ثقافتنا الدخيلة : أي الثقافة الأوربية وأعني بها ناحية التعليم الرسمي ، بأن تكوّن فينا تلك الفطرة التي تصلنا بثقافتنا التقليدية لتكون معملا حديثاً يتحلل فيه ما يصلنا عن أوربا ، ويخرج منها مصبوغاً بصبغة مصرية أصيلة . ومثل الأزهر في ذلك كمثل كائن حي هضم ولم يأكل ، ومثل التعليم الرسمي كمثل كائن حي أكل ولم يهضم . فناحية جائعة وناحية متخومة

لقد ظل اتصال الأزهر بذلك الجزء الذي يمثله من ثقافتنا التقليدية غير مكيف بمقتضيات العصور والحالات التي قامت خلالها وهو أقل تكيفاً بمقتضيات هذا العصر منه بمقتضيات كل عصر مضى . أما إذا كانت كلمة الثقافة تدل على تكييف الذهن تكييفاً تاريخياً أول شيء — ونقصد بالتكييف التاريخي خلق تصورات جديدة من تاريخ الأمم القديمة — فما من شك إذن في أن الأزهر لم يتصل بالثقافة التقليدية من ناحيتها التي تخلق هذا التصور ، وإنما اتصل بناحية من الثقافة التقليدية صدت التصورات عن الابتعاث في سبيل الابتكار . وكذلك ظل تعليمنا الرسمي بعيداً عن الاتصال بثقافتنا التقليدية من جميع نواحيها تقريباً . ومن هنا ذلك الصدع المتنائي الذي نلحظه قائما بين الناحيتين

ولقد يخيل إلى أن ما مضينا فيه من بحث هذه الناحية كاف للبيان عما نقصده من ضرورة الاتصال بثقافتنا التقليدية من الوجهة العقلية . أما الوجهة الفنية العاشية ، وهي الناحية التي لها الأثر الأكبر في علاج الحالات الاجتماعية التي قامت حفافينا من الناحية الاقتصادية ، فتلك ما سوف أصور كيفية الاتصال بها تصوراً عملياً لأن ذلك هو الغرض الأول من بحثنا هذا

* * *

إذا كان ما قلنا صحيحاً من أن البطالة في مصر والتعليم أمران متصلان أشد الاتصال ، باعتبار أن أحدهما مرض والثاني علاج ، فالواجب يقضي علينا بعد أن أظهرنا أوجه الاتصال أن نبين عن الطريق العملي الذي يجعل العلاج ناجعاً في القضاء على الداء . ولما كانت ثقافتنا التقليدية من الوجهة العاشية هي الزراعة تحتم علينا بحكم الضرورة أن ننقل درجتي التعليم الأوليين ، أي الابتدائي والثانوي ، وهما الدرجتان التكوينيتان في مراحل التعليم ، من المدن الى القرى ، وأن نقيمهما على سياسة تختلف اختلافاً تاماً عن السياسة التي يجريان عليها الآن

تجري سياسة التعليم الآن في هاتين المرحلتين على أساس نظري بعيد عن أن يجعل لنا أي اتصال بثقافتنا التقليدية ، من

وجهتيها العقلية والماشية . وإنى لا أكون مغالياً إذا قلت إن هذه السياسة لا تصلنا بثقافة أوربا أيضاً بحيث تجعلنا قادرين على فهم ما ننقل منها فهماً صحيحاً مفيداً . وما قولك فى شاب يخرج من التعليم الثانوى جاهلاً بلغته العربية وأصولها وآدابها غير متصل بآداب دينه ، غير عارف بشيء من تاريخ بلاده ، وبالأحرى من تاريخ العرب أو تاريخ مصر ، عاجز عن التعبير تعبيراً صحيحاً بأى من اللغتين الأوربيتين اللتين يتلقاهما فى مراحل ذلك التعليم ؟ أضف إلى ذلك أنه بجانب هذا يخرج من التعليم الثانوى غير متصل بشيء من ثقافة بلاده التقليدية من الوجهة الماشية ، غير متصل بطبيعة الأرض التى أنشأته أو بطرق استغلالها مشحون الذهن بنظريات وأوهام يتعذر معها أن يعايش الفلاح وأن يدرك شيئاً من سر حياته وتقاليده وخطراته ونفسيته . فكأننا بهذا التعليم نخلق من حوله جواً مصطنعا وبيئة عقلية غريبة عن طبعه ؛ فيصبح بذلك أداة عاطلة فى جسم الاجتماع وبزرة حية للتبرم من الحالات القائمة من حوله فى مرباه ، بل ومنشأ للقلق ومرتعا لغرس الافكار المتطرفة الخاطئة ؛ وعلى الجلة يكون موضعا خصبا لغرس بذور الشر والفساد ، والعمل على قلب النظم الاجتماعية طمعاً فى الحصول على نظم تلائم كفاياته وتتفق ومؤهلاته التى أهله لها التعليم . ذلك بأن كل عقلية لها تكوين خاص تنشد من طريقه دائماً البيئة التى ترضيها ، وعجز المتعلم العاطل عن الانتاج إنما يحمله بمقتضى موحيات عقله الباطن على أن يعمل على تكوين البيئة التى تلائمه متخذاً من النظم الاجتماعية التى نشأ فيها مادة يجرب فيها مقدار ما فى نفسه من قوة التحليل ، لا من قوة التشييد ، على خلق البيئة التى ترضيه ، والنظم التى توائم عقليته وكفاياته

إن الخطوة الأولى التى ندعو إليها وهى نقل درجتى التعليم الأولين من المدن إلى القرى ، لخطوة ضرورية فى علاج سياسة التعليم ، وهى الخطوة الأساسية فى وصل التعليم بثقافة البلاد التقليدية من الوجهة الماشية . أما الخطوة الثانية فتنحصر فى إقامة مدارس الحقول ، فتشيد المدرسة على أرض فسيحة تكفى لأن تكون ميداناً يتعلم فيه الطلاب طرق الزراعة العلميـة على القواعد الحديثة ، ويجب مع هذا أن تلغى الشهادة الابتدائية ويكتفى بشهادة التعليم الثانوى ، وأن يبدأ الطالب حياته التعليمية من الثامنة ، ويفرغ من تعليمه الثانوى بعد عشر سنين فيخرج من المدرسة وله من العمر ثمانى عشرة سنة أو عشرين سنة . فاذا أراد أن يتخصص بعد ذلك فى التعليم العالى فله ذلك ولكن بعد أن يكون قد اتصل بثقافة بلاده التقليدية ، وقامت معلوماته على أساس عملى رشيد ، يكون إليه مرد رزقه إذا تخصص وعجز عن كسب رزقه الحلال .

هذا هيكل من الرأى يحتاج إلى شرح وجيز . فاننا لا نعنى أن تعليم الطلاب فى تلك المدارس الزراعة العمليـة يجب أن يصل الطالب بالناحية النظرية ، وإنما نعنى أن يكون أساس التعليم فيها الزراعة العملية وما يتصل بها من العلوم ، وبجانب ذلك تعلم نظرى قائم فى أول الأمر على الاتصال بثقافة المصريين التقليدية من الوجهة العقلية ، مع العناية بأمر اللغات الأوربية عناية كبرى حتى يتيسر لنا الاتصال بثقافة العصر اتصالاً وثيقاً صحيحاً

أضف الى ذلك أن الطالب ينبغى أن يلقن كل ما يتصل بالانتاج الصناعى من الوجهة الزراعية ، فيخرج ملماً بطائفة من الصناعات المتصلة بمحصولات بلاده الزراعية عارفاً بسرها ووجه الانتفاع بها . وإنى لن أغالى إذا قلت إن كثيراً من الذين ينجحون من أهل أوربا فى بلادنا أكثر اتصالا بثقافة بلادنا التقليدية من الوجهة الماشية من الطالب المتخرج فى كلية علمية من كلياتنا . وفى هذا سر نجاحه العملى وسر عطل شبابنا عن العمل . ولهذا يتحتم علينا أن ندعو الى نشر الصناعات ، ولكن الصناعات التى تتصل أول شيء بمنتوجاتنا الزراعية ، وأن نصدف عن غيرها لأنها لا تفيدنا شيئاً فى حياتنا الماشية أو تثبيت حالاتنا الاجتماعية المرتجة الشاذة . وبخاصة إذا وعينا أن دور التعليم على اختلاف نواحيها تخرج كل عام عدداً من المتعلمين تعليما غير عملى زائداً عن حاجة البلاد .

وإنما يجب أن يتجه التعليم فى الحقول الى غاية أخلاقيـة ، محصلها أن يغرس فى طبيعة المتعلمين شعور جديد فى شرف المهنة التقليدية التى ورثناها عن أسلافنا ، ألا وهى الزراعة . فإن التلميذ يجب أن يضع يده فى كل عمل يمكن أن يؤديه الفلاح بنفسه ، وأن يتصل من طريق عضلاته بكل ما تتطلبه مهنـة الزراعة من أعمـال جسمانيـة ، وأنه لا يرى فى

لا شيئاً خادشاً لعزته أو مذلا لنفسه

أورثنا الحكم التركي المشؤوم عادة احتقار الفلاح ، لأن كلمة « فلاح » كانت توازي عند التركي أحط ألفاظ الشتم وأشنع كلمات السباب . ولطول الأمد الذي اعتدنا أن نسمع فيه هذه الكلمة مؤدية ذلك المعنى غرس في طبيعة المصريين أنفسهم ، طريق التكرار ومستوعيات العقل الباطن ، ميل إلى احتقار الفلاح واحتقار مهنته ، والاعتقاد بأن العمل اليدوي في الزراعة إنما هو عقاب نفسي مرهق للنفس خادش للذة . وأنت ترى أن الأعراب في مصر قد انتحلوا هذه العادة . فانك إذا سألت أعرابياً أفلاح أنت ؟ أجابك على الفور : « كلا ! أنا عربي ! » ولكن بنبرات تدل على أنه يعتبر الكلمة اعتداء على مكانته السامية ، وقد يكون من خشاش الناس ومن ذؤبان العرب ، مهلهل الثياب قذر النظر والمخبر .

ولم يقف الأمر عند هذا ، بل إنك تجد أن الفلاح إذا قضى خدمته العسكرية وسرح من الجيش أنف أن يعود إلى الحقل أو أن يحمل المحراث أو يقود الماشية ؛ فاذا عجز عن أن يكون شرطياً ، قضى وقته في القرية عاطلا أو محترفاً حرفة أخرى غير الزراعة ، فتجده نجاراً أو حداداً لا يملك قوت يومه . وقد يتطرف بعضهم في احتقار مهنة آبائه فيغشى المجالس عازفاً على قيثارة ، لأنه كان في موسيقى الجيش ، مستجدياً بها ، كأنما هو يعتقد أن الاستجداء بالعزف على قيثارة أشرف من العمل في الحقول . ولا شك في أن هذه الظاهرة قد أورثت نقصاً نفسياً يمكن تعليله علمياً ، ولكن ليس هنا مكان إيضاحه . ولكن ذلك لا يحول دون القول بأن هذه الظاهرة من السهل علاجها بأن نعود أولادنا الاعتقاد بشرف المهنة التي تربي جسومهم ، وعليها قامت مدنيتهم منذ أقدم العصور ، على أن نفهمهم أولاً أن لهم مدنية وماضياً جديرين بالاحترام

والمحصل أننا لن نخلص من نتائج البطالة إلا بالاتجاه إلى إقامة سياسة التعليم على قواعد جديدة أساسها الأول الرجوع إلى ثقافتنا التقليدية ، فنخرج رجالا مستقلين بأنفسهم يعرفون كيف يرجعون إلى حضن أمهم الأولى « مصر » إذا أرادوا الحياة سعيدة هنية . ومن أجل أن نصل إلى هذه النتيجة ينبغي لنا أن ننتحي أسلوباً معيناً ينحصر في تنفيذ الآتي :

أولا — جعل مدة التعليمين الابتدائي والثانوي عشر سنوات يمتزج فيها التعليم النظري بالتعليم العملي الزراعي ، وأن يغرس في الطلاب روح الاعتقاد بشرف مهنة آبائهم التقليدية ، وأن يقترن هذا التعليم بتلقين الصناعات الزراعية وبخاصة ما يتعلق بالزراعة العملية منها

ثانياً — درس تاريخ العرب والمصريين درساً تحليلياً وافياً

ثالثاً — درس مبادئ العلوم والآداب العامة ، وهي الجهة التي تلقح بها عقولنا من الثقافة الحديثة

رابعاً — درس آداب العرب ومبادئ الدين العليا .

خامساً — درس عقائد المصريين القدماء وطرق معيشتهم وآثارهم وأعيادهم ، وعلى الجملة كل ما يتعلق بحياة الجماعة في مصر القديمة

وهنالك بجانب هذا أشياء يجب أن يهيأ الناشئ بمعرفتها ولكنها جميعاً تفاريع عمل هذه الأصول فلا محل لذكرها

فاذا تخرج الطالب وله من العمر ثماني عشرة سنة أو عشرون أصبح على الحكومة له واجباً تؤديه ، هو أن تمنحه قطعة من أرضها المملوكة لها يؤدي لها فيها ثمناً نايلاً على أقساط طويلة ، وأن تمده برأس مال إن احتاج اليه يسدد مع ثمن الأرض ليكون عونه على إعداد عدته لحياة العمل والكفاح

هذا طريق الخلاص ، وهو وحده طريق القضاء على البطالة ، وإخراج جيل جديد منشأ على طرق عملية ، جيل مكافح عامل خال من آثار الأمراض الاجتماعية ، جيل يشعر بأنه مستقل في الحياة وأن له عزة الرجولة وشرف الانتساب إلى مصر الخالدة ، جيل ، هو جيل الاستقلال الحقيقي والعمل لمجد النيل

اسماعيل مظهر

مخازن البن البرازيلي
بالمعرض ... بالمدينة ...